## ( ٣٩ )

# غرور

إذا(١) رأيت فى النظام السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى شراً ، واقتنعت بأن إزالته واجبة ، وبأن إقرار الخير مكانه أمر محتوم ، كان من حقك أن تدعو إلى ما ترى . وكان من الواجب عليك أن تلح فى الدعوى لما ترى . وكنت آثما فى حق نفسك إن كتمت رأيك وأخفيته على الناس . وكنت آثما فى حق الناس إن لم تدلهم على مواطن الشر فى حياتهم ، ولم ترشدهم إلى ما فيه المنفعة والخير .

هذه أوليات يخيل إلى من يقولها أنه لا يقول شيئاً جديداً ، ويخيل إلى من يسمعها أنه لا يسمع شيئاً طريفاً ، لأن ترديدها قد كثر بين الناس فى جميع العصور ، وفى جميع البيئات ، حتى سئمها القائلون والسامعون ، ولكنها على ذلك ما زالت غامضة وما زال غموضها مصدر الشر الكثير فى فى حياة الأمم والشعوب . ولعل غموضها مصدر ما نحن فيه الآن من فساد واضطراب .

فقد نخطىء فى الخلط بين الحق والواجب ، وقد نغلو فى تقدير هذا الحق وهذا الواجب . وقد يضطرنا هذا الخطأ ، وهذا الاسراف إلى أن تريد الاصلاح فنسىء ، ونقصد إلى الهداية فنضل ، ونتعمد الارشاد فنتورط فى الاعتداء .

نقتنع بالرأى فيغرنا هذا الاقتناع ، ويخيل إلينا أننا نحن وحدنا المصيبون ، وأن غيرنا جميعاً مخطئون . ثم لا نلبث أن يملكنا هذا الغرور ويدفعنا إلى إهدار الحرية . وإذا نحن نحاول أن نفرض آراءنا على الناس

---

(١) ٨ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٦

فرضا . وأن نكرههم على ما نحب لهم من الخير إكراها . وإذا نحن نزعم لأنفسنا العصمة ونبرئها من الخطأ ، ونقدس آراءنا تقديسا ، ونتخذ الذين لا يشاركوننا فيها ، ولا يظاهروننا عليها أعداء ، ونسير فيهم سيرة الأعداء .

ولعلك حين تريد أن تفهم الأزمة التى اضطرنا إليها رئيس الوزراء ، والذين يؤيدونه لم تجد لها تفسيراً غير هذا الغرور الذى يتورط فيه أصحاب الآراء فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .

ظن رئيس الوزراء وأصحابه أن نظامنا السياسى القديم شر ، لأنه لم يكن يلائم آمالهم وأطماعهم ومثلهم العليا فى الحكم وتصريف الأمور . ورأوا أن فى هذا النظام أصولا يجب أن تزال ، وأن تقر مكانها أصول أخرى . رأوا أن الانتخاب العام المباشر لا يوصلهم إلى الحكم ولا يضمن لهم كثرة الشعب . ورأوا أن سلطة البرلمان إذا اتسعت وبعدت حدودها لا تمكن من البقاء فى الحكم إن أوصلتهم إليه المصادفات ، ورفعتهم إليه الظروف ، فأرادوا تخصيص الانتخاب وتضييقه . وأرادوا تقييد سلطان البرلمان والقص من جناحه ، وحاولوا أن يدعوا إلى ذلك فلم يفلحوا ، وألحوا فى المحاولة فلم يستجب لهم أحد ، ولم يؤمن لهم إنسان .

وكان الإعراض عن معونتهم والانصراف عن دعوتهم مثيرين لسخطهم على هؤلاء الذين يدعون فلا يستجيبون، ويلح عليهم فى الدعاء فلا يحفلون. وزادهم هذا السخط إيمانا بآرائهم وثقة بها ، فألحوا فيها وأصروا عليها . وما هى إلا أن اغتروا بهذه الآراء ، وأسرفوا فى الغرور ، فاعتقدوا أنها وحدها الحق ، وأنها وحدها الخير . وأن غيرها باطل ، وأن غيرها شر . ثم أخذوا يفكرون ويقدرون ، وجعلوا يهيئون ويدبرون ليفرضوا آراءهم هذه على الناس فرضا ، وليدفعوا الناس إلى آرائهم هذه كرها بعد أن أعياهم الإقناع ولم يواتهم الدعاء الهادىء المطمئن .

هنالك أحكم التدبير ، ووثب رئيس الوزراء إلى الحكم فثار بالدستور القديم ، وفرق البرلمان القديم، واستحدث ما استحدث من نظام ؛ وأجرى

ما أجرى من انتخاب ، وصرف أمور مصر كما يصرفها منذ نهض بالحكم فى قوة وعنف ، وفى إكراه للشعب على ما يريد هو ، وإرغام للشعب على ما يحب هو .

وكانت فى أوربا حركات إصلاحية ،ظاهرها القوة والشدة ، فما أسرع ما وجد رئيس الوزراء لنفسه الأشباه والأنداد ، وماأسرع ما قارنهأنصاره بموسولينى فى إيطاليا ، وهم الآن يقيسونه إلى هتلر فى ألمانيا . ومع ذلك فلم يكن رئيس الوزارة يوم ألغى الدستور إلا خارجا على النظام ، مسيئا إلى القانون ، ومسيئا إلى الأمة كلها . ذلك أن الإصلاح السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى لا ينبغى أن يفرض على الناس فرضا ، ولا أن تؤخذ به الجماعات وهى كارهة له ، معرضة عنه . ولا أن ترغم عليه الشعوب بقوة الحديد والنار ، بل لا ينبغى للمصلح أن يمس الذين يريد إصلاحهم بشىء من الأذى قليل أو كثير حين يعرضون عما يحمل إليهم من إصلاح . وإذا لم يكن بد من أن يصيب الأذى فى سبيل الإصلاح أحدا من الناس فانما يجب أن يصيب المصلحين أنفسهم ، ويجب علىهؤلاء المصلحين أن يوطنوا أنفسهم إعلى احتمال الأذى والتعرض للمكروه ، بل للموت أحيانا فى سبيل ما يدعون إليه من إصلاح .

وربما كانت هذه الأيام التى تبتدىء العام الهجرى الجديد ، وتذكر المسلمين بتاريخهم حافلة بالعبر والعظات لمن أنساهم الغرور ، فوجب عليهم أن يتذكروا ، فان الداعى إلى الإسلام ، والمؤسس لهذه الدولة الإسلامية لم يؤذ أحدا ، ولم يفرض على الناس دينه فرضا ، ولم يأخذهم بهذا الدين كرها ، وإنما دعا الناس إليه رفيقا بهم ، محبا لهم ، شفيقا عليهم . ولقى منهم فى سبيل هذا الرفق عنفا ، وفى سبيل هذا الحب بغضا ، وفى سبيل الإشفاق قسوة وعنتا . وما زال يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ،فيستجيب له خيارهم ، ويلقاهشرارهم بالبغى والعدوان حتى ظهرت كلمة الله وانتشر نوره ، وعز دينه فآمن به الثائرون به والمتنكرون له .

والذين يتمدح رئيس الوزراء بأنه يشبههم ويسير سيرتهم لم يثوروا بنظم بلادهم كما ثار رئيس الوزراء بنظام بلاده . فلم يصل موسولينى إلى حكم إيطاليا إلا بعد أن وصل إلى زعامتها ، ولم يصل موسولينى إلى زعامة إيطاليا إلا بعد أن جاهد جهادا سلميا رفيقا ، قوامه الدعوة إلى الخير والإلحاح فى النصح حتى استجاب له من استجاب ، واقتنع برأيه من اقتنع ، والتفت حوله كثرة إيطالية مكنته من أن يطلب الحكم ويظفر به ، ويخلق إيطاليا خلقاً جديداً .

ولم يصل هتلر نفسه إلى حكم ألمانيا إلا بعد أن دعا إلى رأيه ، واقنع به والتفت حوله هذه الكثرة التى أظفرته بالانتخاب فاضطر رئيس الجمهورية الألمانية إلى أن يلقى إليه أزمة الحكم ، وكان يأباها عليه ، ويذوده عنها فى شدة وإصرار .

بعيد جدا ما بين رئيس وزرائنا وبين المصلحين الذين يستحقون أن يوصفوا بهذا الوصف ، فهو لم يجاهد فى نشر رأيه ، ولم يلح فى الدعوة إليه ، ولم يلق فى ذلك شيئا من الأذى ، ولم يتعرض فى ذلك لشىء من المكروه . وإنما هيئت له الأسباب ، ودبرت له الأمور ، ثم أجلس على كرسى ، وأعطى أعنة الحكم ، وقيل له انطلق فانطلق أمامه ، لا يأتى على شىء إلا عصف به عصفا وعبث به ألوان العبث ، وهو على هذا كله لم يكتف بأن تهيأ له الأمور فى غير جهد ولا مشقة ، بل أخضع أمته لمضروب الجهد وألوان المشقة فعكس الآية ، وآثر نفسه بالراحة فى سبيل الإصلاح وآثر أمته بالشقاء والعناء فى سبيل ما يراه إصلاحا .

ولهذا لم يوفق رئيس وزرائنا إلى شىء ، ولم يصلح رئيس وزرائنا شيئا ، وسينزل رئيس وزرائنا عن الحكم فلا يبقى له فى هذه الأمة أثر إلا هذه الذكريات المؤلمة التى تصور ما صب على أمته من عذاب ، وما أنزل بأمته من شر . فأما السياسة التى فرضها فلن تستقر بعد أن ينزل هو عن السلطان ، ذلك لأنه وصل إلى الحكم قبل أن يكون لنفسه هذه القوة الشعبية

الصادقة . وصل إلى الحكم قبل أن يقنع الناس بآرائه فى الإصلاح . وكان يجب أن يكون وصوله إلى الحكم نتيجة لسعيه لا مقدمة له .

سيستقيل صدقى باشا أو سيقال، فينحل من حوله كل شىء ، ويتفرق من حوله كل إنسان ، وتعود الأمور بعده كما كانت قبله .

أما المصلحون حقا فقد اعتزلوا الحكم، بل فارقوا الحياة وبقى إصلاحهم وقوى بعدهم واتسع سلطانه ، لأنهم لم يسلكوا إلى إصلاحهم هذه الطريق التى سلكها رئيس الوزراء ، ولم يؤثروا أنفسهم بهذا الخير الذى آثر به رئيس الوزراء نفسه . فما أجدر الذين يفكرون فى الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى أن يتعظوا بهذا الدرس القاسى الذى تلقيه الأيام على رئيس الوزراء ، وأن يعلموا أن الأمم لا تكره على الخير إكراها ، وإنما تقنع به إقناعا ، وترغب فيه ترغيبا . وإن الله — وقد استأثر وحده بالكمال واستأثر وحده بالقوة والسلطان — لم يكره الناس على الخير ، ولم يدفعهم إليه بالشدة والعنف ، وإنما أمر نبيه أن يدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يدفعهم إليه بالحجة والعبرة ، وأن يحتمل فى سبيل ذلك ما احتمل من الأذى ، ويصبر فى سبيل ذلك على ما صبر عليه من مكروه .

أفيؤثر الله الرحمة واللين والدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن ، ويأبى الناس إلا أن يكرهوا الأمم والشعوب على مالا تريد ؟